جامعة قطر

مكتبة البنجي
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مصرح بإعارته من المكتبة

العدد التاسع
١٤٠٦ هجرية - ١٩٨٦ ميلادية

الأستاذ الإمام محمّد عبده
في الذكرى الثمانين لرحيله

الدكتور محمّد طه الحاجري
الأستاذ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

منذ قرأت في مقدمة الجزء الثالث من أجزاء الكتاب الذي وضعه الأستاذ محمد رشيد رضا عن محمد عبده الجملة التي حكاها عن ابراهيم نجيب الذي كان يتولى وكالة الداخلية ، قائلاً : ان الناس لا يعرفون قدر محمد عبده إلا بعد ثمانين سنة ، ولا يكاد هذا الرقم يغادر ذهني ، متسائلاً عما دعاه إلى تنكب ما تواضع الناس عليه ، حتى إذا ما قاربت الثمانين أن تنتهي ، ودخلت مصر في عهد جديد ، وثب هذا الرقم وجدد إلحاحه على ، واذكرني ذلك التاريخ الذي فجعت فيه مصر بوفاة ذلك الرجل ، وارتجت فيه أرجاء العالم الإسلامي ، وأثار في نفسي الرغبة في مراجعة هذه الفترة ، أعيش فيها ونلتمس معالمها وملامحها . الفترة التي بدأت بمولده في منتصف القرن التاسع عشر ، وانتهت بوفاته في دار صديقه محمد راسم برمل الأسكندرية ، وكان يقضي فيه أواخر أيامه ، يعاني ذلك المرض الذي أطبق عليه ، إلى أن انتهت حياته المقدورة له في الساعة السادسة من مساء اليوم الحادي عشر من أيام شهر يولية سنة خمس وتسعمائة وألف .

وإذن فها هي ذي الثمانون عاماً التي قدرها إبراهيم نجيب توشك أن تنتهي ، وها هو ذا واجب المؤرخ الذي جعل نفسه رقيباً على هذه المرحلة من مراحل التاريخ المصري قد بدأ يهيج في ضميره ما هو مرتبط به من التدسيس في زواياها وتأمل خفاياها واستنتاج ما هو كامن فيها من عوامل وأسباب ويحمله على النظر والتأمل علة يجد شيئاً مما كان يقدره وكيل وزارة الداخلية إذ ذاك ، إذ يجعل هذا التاريخ الذي قضى فيه محمد عبده نحبه نهاية هذه المرحلة ، وغاية ما كان يعتمل في صدره من نتائج هذه الحياة التي أتيحت له في القرية التي نشأ فيها متأثراً بالعوامل الفطرية التي كانت تسودها ،وفي المعهد الأحمدي الذي أراد أبوه أن يؤثره به دون سائر اخوته ، وبما أتيح له من أثر خال أبيه الذي قضى تلك الفترة الروحية من حياته ، ثم بما قدر له من آثار علم من أعلام ذلك العصر ، وما كان يسيطر عليه من قوى سياسية ، إلى أن تجافت مبادئهما ، فمضى كل منهما إلى غايته ، واتخذ محمد عبده ما قدر له من أهبة ، وما كان كامناً في أعماقه من أسباب ، إلى أن بلغ الكتاب غايته ، وكانت هذه الخاتمة التي أنهت حياته ، والتي لا نبالغ إذا زعمنا أنها أنهت في الوقت نفسه مرحلة من مراحل الحياة المصرية ، وجعلت تهيؤها لاستقبال مرحلة أخرى تالية لها مترتبة عليها ، وأن تكن مختلفة عنها .

وذلك هو ما جعل يجول بخاطري وأخذ يلح على هذه الأيام خاصة ، ويحملني على مراجعة حياة ذلك الرجل الذي كان فيما أقدر - نموذجاً فريداً من نماذج ذلك العصر ، وذلك بما انفرد به من ميراث لم يتهيأ لغيره ، وبما اجتمع له من أسباب في تكوينه الجسدي والعقلي لم يظفر بها من أبناء ذلك العصر سواه ، وبما قدر له من مكانة غالبت كل ما كان يحتويه من عراقيل ومعوقات فقبلها وهي عراقيل ابتلعت فيها كل القوى السياسية والاجتماعية والثقافية التي تفرقت مصادرها حتى إذا واجهته فقد اجتمعت ازاءه تلك المصادر ، ولم تعد ترى فيه غير تلك الشخصية التي لم يكن لبعضها في الحياة إلا أن تحقق تلك التراث ، وأن توفر لنفسها أسباب الخلود الحق ، ذلك الذي ألهم ابراهيم نجيب تلك العبارة ، فلم

ير في مظاهر الحفاوة التي صحبت موته غير انفعالات طارئة لا تلبث أن تختفي ، إلى أن يحين موعدها حين تعتدل الأمور وتستقيم الموازين وتتضح الحقائق وينقضي ذلك الغليان الذي يموج به العالم فيحجب ما وراءه . وما ينبغي أن يكون ذلك إلا بعد هذه الفترة التي نص في خاطره أنها ثمانون عاماً أو ما يناهزها .

ومهما يكن من أمر هذه النبوءة : أكانت خاطراً خطر بالبال لم يملك صاحبه إلا أن يطلقه ، دون أن يتدبر أسبابه ، أم كانت كلمة عابرة أتيح لها من رشيد رضا من قيدها لتكون في ذاكرة من يرى من واجبه أن يعرج على هذه المرحلة ، فما أجدرها أن تستوقفنا في هذا الوقت خاصة إذ نحاول أن نرى في حياتنا الماضية ما لعله يخرجنا من هذا المأزق الذي نرى فيه أنفسنا ، ويتيح لنا مخلصاً من هذه الورطة التي أحاطت بنا ، والتي نجهد الجهد كله أن نجد في الملابسات التي تضطرب بها الحياة من حولنا ما يمكن لنا من الخلاص ، ويقدر لنا حياة كريمة نستأنف بها ما كان لنا قبل من مكان رفيع ومنزلة عالية . وإذا كانت الحياة وحدة متصلة الحلقات متعاقبة المراحل ، فما أجدر ما يمكن أن تعبر عنه هذه القوى التي تمثلت في محمد عبده أن تكون وثيقة الصلة بهذا الذي تطمح مصر إليه ، وتسعى نحوه ، وتجهد في أن تبلغه ، وأن تقدر ما في هذه القوى من خصائص الحياة المصرية خاصة والإسلامية عامة من صفات أصيلة استطاعت أن تقاوم كل ما كان يعترضها إلى أن انتهت إلى الغاية التي كان لابد أن تستكن عندها ، إلى أن يتاح لها أن تأخذ من بعد مكانها ، وتأتلف مع ما أبرزته الحياة من قوى تعاضدها .

وما ينبغي أن يغيب عنا أن الحياة الدنيا محكومة بطائفة من القوانين الأصيلة الكبرى ، هي التي تحكم مسيرتها وترسم أطوارها ، ولا بأس أن تتخللها في خلال ذلك أحداث صغار لا تلبث بعد أن تؤدي غايتها أن ترتد على أعقابها مفسحة الطريق لتلك القوانين الكبرى ، وقد اتخذت الحياة بها ما كان مقدراً لها أن تصنعه فيها ، أو أن تهيئها له ، فإذا بهذه القوانين الأصيلة بازاء عالم جديد في

ظاهره ، ولكنه ثابت مستقر في حقيقته الثابتة المركوزة ، وإذا هي تصنع منه عالما يبدو جديداً في بعض مظاهره ، ولكنه نابع في حقيقته من تلك الأصول الثابتة التي بنيت الحياة عليها .

وهذا ما كان في تقديري وقد وجهتني تلك العبارة المأثورة إلى أن أراجع تلك المرحلة التي انقضت بموت محمد عبده ، وأتأمل ما كانت تعبر عنه ، وما كانت قد أودعته في شخصيته ، وماهيأته له فى حياته ، وما أخذته به من أحداث وصروف إذا كانت قد وقفت به عند تلك الغاية فإن حقائقها الأصلية ماضية في عملها ، مؤتلفة مع ما حولها ، لتنتهي إلى غايتها ، ولتستمر بها الحياة في مسيرتها المقدورة لها ، منتقلة من مرحلة إلى مرحلة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تلك هي جملة القول في حياة محمد عبده ، فإذا نحن عاودنا النظر فيها وحاولنا أن نبين أطوارها ومراحلها ، وجدنا أنها تقع أولاً في قسمين رئيسيين يفصل بينهما اتصاله بجمال الدين الأفغاني حين جاء مصر للمرة الثانية ، فكان من توفيق الله أن اتصل به وتتلمذ له ، ورأى فيه الشعاع الهادي له ، والمثال الذي تتطلع مواهبه وملكاته إليه ، ومازال ماثلاً له إلى أن اصدر معه مجلة العروة الوثقى في الطرف عنه ، وبعطى من كل ما تستدعيه بلدنا شيء كمصر ، وخاصة بعد أن العرابية التي لم يجد بداً من أن يشترك بقدر ما فيها ، ثم وضح له من بعد ان له مذهباً خاصاً يختلف عن مذهب استاذه فسلكه ، وإن ظل على ولائه له ، وتقديره لوجوه عبقريته . ولكنه ما بداله في خلال اصدارهما تلك المجلة اوقع شيئاً من الفرقة بينهما ، فاتخذ كل منهما سبيلا خاصاً به ، وكان سبيل محمد عبده هو ما جعل يصطبغه بعد ذلك حين عاد من باريس إلى بيروت ، متخذاً التدريس والتأليف وحديث المجالس يبث فيها آراه ، ويذيع فيها ما يصح في ذهنه من مذاهب ، شاغله الأكبر وديدنه الدائم .

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية في حياته ، وكان ما قد تقدمها من ممارسة

التدريس والتأليف في دار العلوم وفي مدرسة القضاء ، ثم ما تبع ذلك مما وكله رياض باشا إليه في ثقة وطمأنينة من عمل في الصحافة ، وما اصطنعه خلال ذلك من معالجة المسائل العامة ، ثم ما استدرج إليه من مشاركة محدودة في الحركة العرابية ، وما ترتب على هذا من حكم عليه بالنفي من مصر ، وما قدر له من مجال فسيح كان يمكن أن يمضي فيه ، عائداً إلى ما كان غالباً عليه من العمل الفعلي والأدبي لولا أن اعترضه ذلك المشروع الذي عبر من أجله البحر ، ليصدر مع جمال الدين العروة الوثقى فكان من ذلك ما كان مما ألزمه أن يعود إلى بيروت ، ويستأنف فيها ما كان قد بدأه بها ، ومازال قلبه معلقاً بالعودة إلى موطنه الذي نفي منه ، مقدرا إنه واجد فيه ما يكفل له ارضاء نوازعه العقلية والأدبية ، وكفاية حاجاته المادية وضروراته المعيشية .

وهكذا جعل شوقه إلى مصر يحفزه إلى العودة إليها ، فلم يلبث أن عاودها بعد أن تزود في فترة مقامة في بيروت وفي باريس بزاد من المعرفة والتجربة والفكر ضاعف حصيلته المعنوية وقدرته الفكرية ومد من مطامحه القومية ، وفتح بصيرته على شؤون جعلته أكثر واقعية . كما أن أهل مصر كانوا لا يزالون يتابعونه وينقبون ما كان يصدر عنه ، وما كان القادمون من السفر يتحدثون به ، وكلما اشتد ضيقهم بما فرضه الاحتلال الانجليزي عليهم اشتد شوقهم إليه وتطلعهم نحوه ورغبتهم في أن يكون بينهم يشاركهم الاحساس بمحنتهم ، ومعالجة ما يمكن أن يعالجه من شؤونهم ، وما نكاد نشك في أن كثيراً منهم كانوا يتطلعون إليه ، ويتعجلون عودته ، معلقين كثيراً من آمالهم عليها ، ولم يكن يشغله من أمر العمل الذي يتولاه إلا أن يعود استاذاً في أحدى هذه المدارس التي كان فكره مستغرقاً فيها ، وكان تدبيره معلقاً بها ، وقد عاد إليه ما كان يمارسه بين أبنائها .

وإذا كانت تلك أمنيته فقد كان ولاة الأمر في مصر حريصين على أن ينأوا به عن مثل هذا المجال ، خوفاً من أن يكون مكانه فيه سبباً في إثارة مشاعر طلابه بما يمكن أن يتدسس إليه حديثه بينهم من ذكريات ما ألم بمصر ، وما أصابه وأصاب

العرابيين من أجل ما اتخذوه من موقف ، وما صار إليه وطنه من سيطرة الانجليز عليه وسيادتهم على القصر وصاحبه وأربابه ، القصر الذي لم ينس ما أصابه منه وما صار إليه من خضوع له واستسلام لسياسته ، ومن أجل ذلك اتخذ دار سكناه قريباً منه ، كما كان من ذلك أيضاً أن أختار ولاة الأمور له أن يعمل في القضاء قاضياً ومستشاراً .

وهكذا نستطيع القول بأن ابرز ما عرض له في حياته منذ افترق عن استاذه جمال الدين ، يمكن أن يتلخص في انحيازه إلى ما كان قد غلب عليه منذ وجهه أبوه إلى الجامع الاحمدي بطنطا ، وما تبع ذلك من وثاقة اتصاله بخال أبيه ، من انصراف إلى الحياة العلمية في الأزهر ثم في دار العلوم ومدرسة القضاء ، فإذا تحول من بعد إلى الصحافة فقد كان عمله فيها أقرب إلى ذلك النشاط ، ثم لم يلبث أن استدرجنه إلى الحزب العرابي الذي كان غير مطمئن إليه ، ومن ذلك كانت محاكمته معهم ، ثم الحكم عليه بالنفي عن مصر ، وانصرافه في بيروت إلى النشاط العقلي استاذاً ومؤلفاً ، فإذا اعترض هذه الفترة دعوة استاذه ليلحق به في باريس بادر إليه ، ورأس هنالك تحرير هذه المجلة التي أصدر منها هنالك ثمانية عشر عدداً ، بذل فيها غاية جهده ، ولكنه تبين بعد ذلك أن القوى الاستعمارية غالبته فغلبته ، فما إن صارح استاذه بذلك حتى كان ذلك بدء القطيعة بينهما ، فعاد إلى بيروت يواصل فيها ما كان قد شرع فيه ، ويأنس فيها لاخوانه وأصحابه من المصريين والشوام ، وقد استوثق مما كان يجول بخاطره ، وأصبح في الوقت نفسه على مقربة من وطنه ، وكان هذا القرب يحفزه دائماً إلى أن يعود إليه ، كما لعله كان من ذلك دعوة أصدقائه وأصحابه له إلى أن يعاود الوطن ، لأنه فيه ما يقتضي ذلك ، ولعلهم كانوا يرجون أن يعود إلى ما كان يمارسه من التدريس في تلك المدارس ، وأن يكون في ذلك ما يأذن له أن يكون قريباً من هؤلاء الشبان ، الذين يتمتعون بالحمية الوطنية ، فيكون في حديثه إليهم ما يوقظها ويهيجها .

ولكن هؤلاء الذين كانوا فيما يتحدثون به إلى أنفسهم لم يكونوا يملكون من الأمر ما يمكنهم من تحقيقه ، ولم يكونوا يعرفون من الحقائق ما يستطيعون أن يصلوا به إلي تنفيذ ما يدور في خواطرهم وتتحدث به أوهامهم . انما ذلك إلى جماعات متفاوته من أصحاب النفوذ الشعبي ، كبعض هؤلاء الشيوخ الذين كانوا ينقمون على محمد عبده ما لم يكن يجد حرجاً في أن يصرح به من كراهية لبعض رجال الدولة ، ومن أصحاب التقدير السياسي كرجال القصر الذين كانوا ينقمون على بعض ما كان يجاهر به في الجريدة الرسمية وفي بعض المجالس ، ومن أصحاب النظر البعيد المتغلغل في بواطن الأمور كرجال تلك الدار الانجليزية المهيمنة على القصر والتي كانت على الرغم من ذلك تتظاهر بالود له ، وتقدير ما أداه إليهم بما أبدى من رأيه في مبلغ جدوى العروة الوثقى . فإذا أجمع هؤلاء جميعاً على أن ينأوا به عن جماعات الشبان في تلك المدارس ، فلم يبق لهم إلا أن يسندوا إليه منصباً من مناصب القضاء ، فيكون فيه قاضياً أو مستشاراً .

وكذلك كان الأمر وإن لم يكن فيه ما يحقق رجاءه الأول ، ولكن كان فيه ما يمكنه من أن يقضي بما يحقق العدل في اصرح دلالاته وأوضح صوره ، باعتبار أنه الأصل الذي ابتنى عليه صرح القانون ، وانه الجدير بأن يصفي النفوس ويزيل الضغائن ويرضي عامة الناس ، وان مما يمكن له منه أن يمحوا كثيراً مما أراد المستعمر أن يبني عليه أحكامه ويشيد عليه نظامه وما كان أقدره على أن يدفع ما يمكن أن يوجه إليه من نقد ، وما يراد إلحاقه به من نكير . وكأن مما مكن له من ذلك بعض ما أخذته به الدراسة في الأزهر ، وما افادة من عمله في الصحافة .

على أن هذا العمل في القضاء قد مكن له من أن يتصل بجماهير الشعب المصري في شتى أقاليم مصر ، وأن يعرف كثيراً مما يلابس حياتهم ويداخل خصوصياتهم . إلى جانب أنه أتاح له أن يشارك في وضع كثير من الأسس

القانونية ، وأن ينفذ إلى أعماق الأمور نفاذاً قوياً ، وخاصة بعد أن أمد نفسه بكثير مما رأى ضرورته ليكون جديراً بالمطامح الرفيعة التي يطمح إليها ، ومن ذلك ما دأب عليه من السفر إلى أوربا وملابسة أهلها والايقال في قراءة كتبها ، بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، وما كان حريصاً عليه من التنقل بين أرجائها ، والتعرف إلى المسلمين في ديارهم ، والتغلغل في أحوالهم . وهو في كل ذلك دائب على الفكر في مبادىء الشريعة الإسلامية ، والتعمق في فهم الأصول الدينية والاجتماعية ، والافضاء بما يصل إليه من ذلك إلى جميع من كانوا حريصين على أن يكونوا معه فيما يفكر فيه . وما كان أكثر هؤلاء الذين كانوا يتعقبون كل ما كان يكتبه أو يتحدث به فيروى عنه وتتناقله المجالس من أقواله .

وإن رجلاً كهذا الرجل ، وقد تنقل في البيئات المختلفة في شتى صورها واطوارها حتى بلغ الغاية في البلاد العربية جميعها ، ما كان من الممكن أن يغض الطرف عنه ، ويعطى من كل ما تستدعيه بلدنا شئ كمصر ، وخاصة بعد أن مد مقامه في الدار التي اختارها موطناً يقضي فيه مدة نفيه ، فكان في ذلك ما جعل الأنظار تتجه إليه ، وتلتمس عودته ، أنظار هؤلاء الذين كانوا يعرفونه زميلاً لهم في الأزهر أو أستاذاً مرموقاً من أساتذتهم ، وأنظار هؤلاء الذين كانوا يجلسون إليه يستمعون منه ويقرءون ما دونه لهم ، ثم من بعد ذلك هؤلاء الذين كانوا يقرءون في أنحاء القطر المختلفة ما كان يكتبه لهم ويوجهه إليهم في الجريدة الرسمية ، إلى أن استطار صيته بعد أن دخل الأنجليز مصر بالقبض عليه ومحاكمته والحكم عليه بالنفي خارج البلاد ، وما تخلل ذلك من السفر إلى باريس والعمل في الصحافة مع استاذه جمال الدين من هنالك ، ثم ها هو ذا بينهم قد عاد إليهم ، رفيع القدر ، مذكور المكانة لدى عامة الناس وخاصتهم ، من أهل البلاد ومن القادمين عليهم .

فإذا أسند إليه منصب من مناصب القضاء كان بين القضاة علماً لا يكاد أحد يدانيه في قوة شخصيته ، ونفاذ بصيرته ، في المحاكم التي يتردد بينها ، وفي

المجالس التي يجلس فيها ، ولم يعد لمصر بد من أن تشركه في كل نظام تستحدثه أو يشار إليه باستحداثه ، فإذا هو فيه صاحب الكلمة العليا والقول الفصل .

وإذا أريد لمنصب الافتاء من يشغله جديراً به ، كفئا لأداء ما يتطلبه ، لم يكن ثـ ة غيره في نظر المسؤولين جميعاً يملك من أسباب هذا المنصب وما يحتاجه في هذه الفترة الدقيقة التي جعلت مصر تنتقل فيها بين صور الحياة المختلفة ، وبين طائفة من المعاملات لم يكن لها من قبل شأن بها ، وليس يجدي فيها ما تزخر به الكتب الموروثة من العصور الأولى المتقدمة ، أو العصور الأخيرة المتخلفة .

وهكذا لم يلبث منصب القضاء الذي أريد باسناده إليه حماية الشعب منه أن أفضي به إلى تلك الباحة الواسعة والأطراف المختلفة والمجالات المتعددة ، فانفتح أمامه ما كان موحداً ، وتنبهت العقول التي كانت تلابسه إلى ما كان حريصاً عليه من الاستشهاد في كثير من المواطن بآيات الكتاب الكريم وما كانت تنطوي عليه مما ينبغي أن يصلح به هذا المجتمع ، وما كان له بازاء ذلك إلا أن يعقد في أكبر أروقة الأزهر ، وهو الرواق العباسي درساً لتفسير القرآن ، وما كاد ذلك يعرف عنه حتى أصبح هذا الدرس مثابة لكبار القوم فضلاً عن العامة ، على ذلك النحو الذي يذكره السيد محمد رشيد رضا في حديث عنه ، وعن هذا المجلس كان التفسير الذي كتبه ، وقد وشحه بفصول كاملة مما كان الاستاذ الإمام معنياً بتدوينه .

تلك صورة من حياة محمد عبده ، ومذهب من مذاهب نشاطه العقلي ، بعد أن راجع مصر وقد اجتمعت إليه قواه في أمثل صورة ، وجعلت تستأديه أن يؤ دي حقها ، فكان من ذلك ما ذكرنا ، إلى أن تم قضاء الله ، وأطبق عليه الموت في دار صديقه ، في ذلك التاريخ الذي لا نجد حرجاً في أن نجعله خاتمة تلك الفترة ، ومبدأ هذه الحياة الجديدة التي تقلبت فيها صور العالم ، والتي نرجو أن نكون على مشارف خاتمتها ، وعتبة مرحلة جديدة تجيء في عقبها ، تمثل ما هو جدير أن تمثله من تراثنا الماضي ومن احداث حياتنا الحاضرة .

الأستاذ الإمام محمد عبده

في مرحلة حياته الأخيرة

إذا نحن أردنا أن نتمثل حياة محمد عبده ، منذ كانت نشأته الأولى في القرية التي ان وافاه أجله في الاسكندرية ودفن في القاهرة ، وجدناها قد مرت في مراحل عدة ، وتنقلت في مواطن مختلفة ، ومارست صوراً من النشاط متفاوتة ، ما بين هذه القرية والجامع الأزهر ، وما بين عبث الطفولة وجد الشباب والرجولة ، صبياً عابثاً ، وشاباً مراهقاً ، وطالباً لا يكاد يصيب شيئاً مما يسمعه ، وجليساً قد تفتحت مشاعره وتنبهت مداركه ، إلى أن اتصلت أسبابه باستاذه جمال الدين الافغاني في المرة الثانية من وفوده إلى مصر ، فاستقام أمره ، وتبينت إلى حد ما ملامح شخصيته ، حتى ظفر بدرجة العالمية ، واتخذ له في الأزهر مكاناً اقبل فيه الطلاب عليه وتجمعوا حوله ، فتنبه إليه ولاة الأمر وبعثوا به إلى دار العلوم ومدرسة القضاء ، فقضى فيهما عاماً ، وبرزت شخصيته في الدرس ، واصطنع مقدمة ابن خلدون في درسه ، ولكنه ما كاد يفرغ من ذلك حتى القي القبض على شيخه ، وقذف به إلى ما وراء البحر .

وتلك كانت أولى مراحل حياته العلمية ، وما لبث أن جاء رياض إلى الحكم فذكره ، وادرك حاجته إليه في مشروع كان يدور في صدره ، هو أن يبعث الجريدة الرسمية من رقدتها ، ويحاول بث الحياة فيها ، فاستقدمه من قريته التي كان قد حدد مقامه فيها ، فوكل إليه أمر هذه الجريدة ، فكان عمله فيها أول ما وصله بالحياة العامة ، ونبه إليه من يحسنون القراءة ، ولكنها لم تلبث أن وصلت بينه وبين العرابيين ، فألقت به في السجن ، وعرضته للمحاكمة ، فخرج من مصر إلى بيروت منفياً مع طائفة ممن حقت عليهم العقوبة . واختتم بذلك هذه المرحلة ليستقبل مرحلة أخرى يلتقي فيها باستاذه .

وقد كان جمال الدين يفكر منذ أخرج من مصر فيما ينبغي أن يصنعه ويستجيب به للحوافز السياسية التي كانت دائمة الاثارة ، فما أن علم بما صار إليه محمد عبده حتى كتب إليه يدعوه إلى لقائه والذهاب معه إلى باريس ، ومشاركته هنالك في اخراج مجلة تطوف العالم الإسلامي ، تذكر أهله بما له من ماض مجيد ، وتدعوه إلى الثورة على هذه القيود التي تكبلهم ، فسارع إليه ، ودبر أمر هذه المجلة ، وأخرجا منها ثمانية عشر جزءاً ، بذلا في إخراجها ما يملكان من قوة ، وما انطوت عليه نفساهما من حماسة ، ولكن الاستعمار الأوربي لم يلبث أن تصدى لها ، وحاول الحيلولة بين القراء وبينها ، فلم تلبث أن خفت صوتها ، ولم تؤد ما كان مرجوا منها ، فانقطعت عن الظهور ، وعلم محمد عبده أن للقوة سلطانها الغالب ، وأن الفكر الذي يعبر عنه هذه المجلة إنما يجد سبيله إذا لم تحل القوة بينه وبينه .

وهكذا فشلت هذه التجربة ، وكان فشلها ايذانا بلون من القطيعة بين محمد عبده واستاذه . وإن بقي على اجلاله له وتقديره لمواهبه وملكاته ، وإن لم يستطع أن يقنعه بما اقنعته به هذه التجربة ، فعاد إلى بيروت يواصل فيها ما كان قد اعتزمه من عمل علمي ، ويبث فيها مبادئه التي ثبت عنده أنها الوحيدة التي يمكن أن تبلغه الغاية ، ويلقي فيها هؤلاء وأولئك من المستحبين له ، قريباً من موطنه ، مفكراً في السبيل التي ينبغي أن يسلكها ، والمنهج الذي ينبغي أن يتبعه . والمكان الذي ينبغي أن يستقر فيه ، ويؤدي به هذا الحق الذي كان ما يزال يراوده ويحاوره .

لقد انتهت المدة التي حكم عليه فيها بأن ينفى عن مصر منذ نحو ثلاث سنين ، وقد علم من مقامه في بيروت أنها ليست المكان الذي تتوفر فيه الاسباب التي تجعله بحيث يؤدي الغاية المرجوة ، فما يزال بعض أهلها يهاجرون منها ، يلتمسون في غيرها مقاماً يستطيعون أن يمارسوا فيه نشاطهم ، ويباشروا فيه ما تهيأت نفوسهم لأدائه ، ويظفروا فيه بما أخطأهم الظفر به فيه ، سواء في ذلك

النصارى والمسلمون ، ومن ذلك كان مقام الكثير منهم في مصر ، وكأنما قد صارت موطنهم الثاني ، ومركز نشاطهم الآخر . وما أكثر من كان يشده في بيروت ممن كانوا لا يزالون يترددون بين مصر وبينها ، يتحدثون عنها وينقلون إليه أخبارها .

ولعل من ذلك ما جعل يعلمه عنها فيهيج شوقه إليها ، كما كان من ذلك ما علم به أن القوم في مصر كانوا لا يزالون يتطلعون إلى أخباره ، ويتشوقون إلى صور حياته . وأنه لم يعد كما كان قبل مقصورة معرفته على هؤلاء الذين تصل إليهم جريدته فيقرءونها ، أو هؤلاء الذين كانوا يتبعون انباءه ومداخلته العرابيين في تصديهم للانجليز واتباعهم ، فيجدون في ذلك ما يثير في نفوسهم الأعجاب والفخر بما كان يؤديه . بل لعل اطرافاً مما كان يداخل بعض اعضاء الأسرة المالكة الذين كانوا يضمرون السخط على توفيق والتبرم بمسلكه واتخاذه جانب الانجليز يمالؤهم ويداخل كبارهم وضباطهم وأصحاب الشأن فيهم . وقد كانت أخبار ذلك مما اعاد إلى قلوب عامة الناس تقديرهم لكثير من ابناء هذه الأسرة واشياعها .

وليس يبعد عندنا أن من ذلك كانت أخبار الندوة التي اتخذتها أحدى زوجات اسماعيل ، وكان يغشاها بعض هؤلاء الذين أصابهم دخول الانجليز مصر ، وسيطرتهم على صاحب القصر ، بالنقمة عليهم وعليه ، فكانوا يجدون في أحاديث هذه الندوة ما قد يسري عنهم ويخفف من وجيعتهم . ولا ريب أن دلالة ذلك كانت مما جعل محمد عبده يزمع المبادرة إلى مصر ، فلا يلبث حتى يبادر إليها ، في سنة ١٨٨٧ ، وأختار مسكنه في شارع الشيخ ريحان قريباً من قصر عابدين .

وهكذا كان بدء هذه المرحلة الأخيرة التي نحسب أنها هي صاحبة الفضل في اسباغ ما اسبغ عليه من درجة رفيعة لا يجد مؤرخ في هذه الفترة حرجاً في أن ينسبها إليه ، ويجعله الميسم التي تتسم به ، غير ناس مبلغ ما تعرض له من أذى

من صاحب ذلك القصر ، الخديوي توفيق .

وقد تهيأ ليحتل المنصب الذي لم يكن ليحتل غيره مما كان أكثر ميلاً إليه ، وهو التدريس ، في أحد المعاهد العالية ، يؤدي بذلك ما يحسب أنه أوفق له واقدر عليه ، وأدعى لأن يذكره بذلك العهد الذي أمضاه مدرساً في دار العلوم ، فكان من أكثر مصادر رضاه وغبطته .

ولكن ولاة الأمر كانوا يقدرون فيه غير ما كان يقدره في نفسه ، والتمسوا فيه شيئاً آخر يبعد به عما يمكن أن يكون مظنة الاثارة يبتعثها بين هؤلاء الشبان إذا هو اتيح له أن يقف أمامهم ، يحدثهم ويحدثونه ، ويتطرق في حديثه إليهم إلى ما يشبه أن يكون قريباً من هذه البابة التي تتمثل أسبابها في صدورهم كما يتمثل في صدره . ولم يكن ذلك الشيء الآخر غير ولاية القضاء . وما كان له أن يعترض فقد درس في الأزهر ما يمكن له منه ، ونال درجة العالمية في موادها ومن هذه المواد الفقه الحنفي الذي روعى في قوانين هذه المحاكم . وهكذا كان أول ما باشره من أعمال السلطان هو القضاء في محاكم بنها والزقازيق والقاهرة .

وإذا كان ولاة الأمور قد قصدوا النأي به عن الشبان ، فقد أتاحوا له أن يتغلغل في أوساط الأسر ويتعرف ما يثور فيها ويثير البغضاء أو الخلاف بين أفرادها ، ويعرف من مساءلته لهم إلى أي مدى وبأي وسيلة كان يصل ذلك الخلاف ، وقد كان مما يعينه في ذلك ما كان قد أخذه على نفسه من الاعتماد على هذه المساءلة يستشف منها الحقائق ، ويصل منها إلى تحقيق العدالة . والعدالة عنده هي الهدف الذي ينبغي للقاضي أن يتحراه ، وما هذه المسألة إلا سبب من أسبابه .

وقضي في مثل هذا العمل ما قضي ، وأفاد منه ما أفاد ، واستطار بين المتقاضين صيتة وعرفت بعض عاداته ، وما كادت شفافية بصيرته تعرض عليه ما يمكن أن يكتفي به حتى كان توفيق قد قضى نحبه وخلفه من بعده ابنه عباس

الذي استقدم من النمسا ، شاباً فتياً لم يلتبس بها التبس به أبوه من مظاهر ضعف الشخصية ، واستسلام لما يشار عليه به ، ومسايرة لما يراه المستعمر أوفق له .

ولم يكن عباس قد بلغ العشرين من عمره بعد ، فهو في نضرة الشباب ، ثم هو عائد لتوه من وسط بعيد عن تزمت الشيوخ ، فإذا بلغ القصر فقد وجد فيه شاباً أيضاً عائداً من باريس هو أحمد شوقي ، كما اتيح له بعد أن يلقى شاباً آخر هو مصطفى كامل ، إلى طائفة من رجال الفن والأدب ، فكان في ذلك ما جعله يستجيب لما عرضه عليه محمد عبده حين اتصل به في مثل هذا الجو ، من وجوه الاصلاح التي كان مشغولاً بها ، وكان من أول ذلك معهد طنطا الذي التحق به أول أمره ، وعانى فيه ما عانى من استغلاق عبارات شيوخه ، ومازال ذلك ماثلاً في ذهنه إلى أن لقى عباساً واشياً يشي فيه روح الاستجابة له ، فرغب إليه أن يكون هذا المعهد على مثال الأزهر ، فوافقه .

وكان ذلك – فيما يبدو – هو بداية الاصلاح الذي كان يخالج صدر محمد عبده ، ثم ما لبس أن اتخذ مثل هذا القرار في معهد دسوق ومعهد دمياط ، وأن عزل الشيخ الانبابي الذي كان قد رفض أن تكون مقدمة ابن خلدون من الكتب التي يعني الأزهر بها ، وجعل مكانه الشيخ حسونه النواوي ، وأن شكل للأزهر مجلس إدارة مثلت فيه الحكومة بمحمد عبده وعبد الكريم سلمان ، كما مثل هو فيه بشيوخ المذاهب الثلاثة : الشيخ حسن المرصفي والشيخ سليم البشري والشيخ يوسف الحنبلي النابلسي . وكأنما اكتفى في تمثيل المذهب الحنفي بالشيخ محمد عبده ، فاعتبر ممثلاً للحكومة والأزهر معاً .

وكان هذا هو الاصلاح الذي أراده محمد عبده للأزهر ، والذي اعتمد عليه في تنظيمه وتقويم مرتبات شيوخه ، وبقى من بعد ذلك المحاكم الشرعية التي عرف بها مارسه فيها ما كانت محتاجة إليه من وجوه الاصلاح ، والأوقاف التي تبدو أن عمله في المحاكم أتاح له أن يعرف ما كان يلابسها من خلل ، وما ينقصها من تنظيم وتوجيه .

ولكن أكبر همه كان موجهاً إلى الأزهر ، وأكثر تفكيره كان مصروفا إلى اصلاحه ، وقد كان له من معرفته التي لم يصرفه عنها شيء ، ولا داخله فيها فكر ، ما جعله أخبر به ، وكان من أقبال المسلمين عليه من أقطار الإسلام المختلفة ما جعله يرى أن إصلاحه هو في الوقت نفسه اصلاح للعالم الإسلامي كله . ذلك ما وقر في ذهنه بعد أن عرف جمال الدين ، كما نرى ذلك في سياق حديثه الذي أورده السيد محمد رشيد رضا ، إذ يقول :

« إن نفسي توجهت إلى اصلاح الأزهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين وقد شرعت في ذلك فحيل بيني وبينه ، ثم كنت اترقب الفرص ، فما سنحت إلا واستشرقت لها واقبلت عليها ، حتى إذا ما صدفت الموانع لويت وترقبت فرصة أخرى . وبعد أن عدت من المنفى حاولت اقناع الشيخ محمد الانبابي شيخ الأزهر بشيء فلم يصادف قبولا ، قلت له مرة : هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الأزهر ؟ ووضعت له من فوائدها ما شاء الله أن أصف . فقال : إن العادة لم تجر بذلك » .

ومن ذلك ما يحكيه السيد محمد رشيد رضا من قوله مرة أخرى : « إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محال ، فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه ، وإني أبذل جهد المستطيع في عمرانه ، فإن دفعتني الصوارف إلى اليأس من اصلاحه ، فإني لا أيأس من الاصلاح الإسلامي .

وسنرى فيما بعد أن الأزهر لم يلبث أن أصبح ألعوبة في يد الخديوي ، أو أن علماءه لم يلبثوا أن صاروا يتوسلون به إلى نيل أغراضهم واصابة أهدافهم ، أما عقب تولية عباس خديوية مصر فقد كان الذي يربط بين هذه الثلاثة فوق ما جال بخاطرنا هو تحاشي الانجليز من أن يتعرضوا على ما هو من صميم الإسلام ، خشية أن يكون في ذلك ما يهيج المشاعر الإسلامية ، وربما أدى ذلك إلى فساد الأمر ، كما يفهم ذلك مما جاء في سياق الحديث عن عباس ، واتجاه محمد عبده إلى أن يكون الاصلاح الذي لا يحتاج لتحقيقه إلى اتفاق الدول الكبرى ،

وهيهات أن يتم ذلك ، فاكتفى بطلب الاصلاح لهذه الثلاثة ، قائلاً :

« فأراد أن يكون حظه من حب الأمير الجديد للعمل السعي في اصلاح الأزهر بنفسه ، وأقناع الأمير بالسعي في أصلاح المحاكم الشرعية والأوقاف ، لأن هذه المصالح الثلاث اسلامية محضة ، تشمل اصلاح التربية والتعليم ، واصلاح المساجد والارشاد ، واصلاح البيوت (العائلات) ، فأتصل بالأمير ، وحظى عنده ، وكاشفه برأيه فيها ، بأن قال له - وقد رآه متبرماً ضجراً من استيلاء الانجليز على جميع أعمال الحكومة - : إن لدي أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة ، فيمكنه أن يصلح الأمة كلها بإصلاحها ، وقد تركها الانجليز له لأنها دينية ، فهم لا ينازعونه فيها الآن . . فيجب المبادرة لاصلاحها » .

وهكذا نرى أن عهد عباس كان مبدأ تحول في حياة محمد عبده ، ومبدأ تحقيق لما كان يجول بخاطره من ناحية الاصلاح الذي كان ما يزال يلح عليه ولم يكن يجد في عهد توفيق ما يأذن بالمكاشفة به . حتى إذا انقضى ذلك العهد ، وتولى خديوية مصر ذلك الشاب القادم من النمسا ، يحمل في اطوائه روحاً متوثبة . وفي ذكرياته مشاهد من الحياة متقدمة ، ثم لم يلبث أن رأى القصر الذي قدم عليه يمثل ما يموج به صدره من مثل هذا الشاب الذي قدم قبله بقليل ، يحمل من أوربا شبيهاً بما جاء يحمله معه ، وتوثب شوقاً إلى أن يحقق لنفسه عالما كذلك العالم الذي تركه ، ويحيط نفسه بمثل ذلك الجو الذي نعم به حيناً ثم قضت الظروف أن يغادره ليأخذ في مصر مكانه ، فقد كان في ذلك كله ما جعله شديد الاصغاء لما جعل محمد عبده يلقيه عليه ، وما أخذ بمزجه بما اتيح له من تجربة متصلة عرف بها الاستعمار في شتى صوره ، وتغلغل بها في بواطنه ، وأحاط علما بما يسعى إليه يريد أن يحققه ، وقد كان في ذلك كله ما جعله سريع الاقتناع بما يقوله ، والاستجابة لما يشير إليه .

وهكذا وجد عباس حلمي في محمد عبده استاذه الأول ، ووجد في حديثه إليه ما يدل على تجربة ناضجة وبصيرة متفتحة وإدراك لحقائق ما هو مقبل عليه

من سياسة ينبغي أن توفق بين المطامح التي تضطرب في صدره والحقائق التي تتمثل في دار المندوب السامي وما يحيط به من حاشية قد رسم كرومر لها طريقها ، بين هذين المنهجين اللذين يعيش بينهما ، وما ينبغي أن يتخذه في الملاءمة بين ما تقتضي به الحياة المترفة التي يمثلها شوقي وأصحابه والحياة الواقعية التي يمثلها محمد عبده ومن على شاكلته .

ذلك هو موقف محمد عبده إزاء هذه الحياة الجديدة التي تمثلت في هذا الحاكم الجديد ، ولكن هنالك عناصر أخرى لم تكن لتغيب عن إدراك محمد عبده ، تتمثل في هذه البيئة التي عاش فيها دهراً مديداً ، وخبرها خبرة متصلة ، وقد تأثر في هذه الخبرة بموقف أستاذه جمال الدين فيها . إنهم أولئك الشيوخ الذين نشأوا على أن يدينو لهذه الشروح والحواشي والتقارير التي كتبها أمثالهم يعلقون بها على هذه العبارة أو تلك من عبارات العلماء السابقين لهم من أهل القرون المتأخرة فلا يتجاوزون في هذه التعليقات أو في أكثرها هذه المماحكات اللفظية والمناقشات الصورية . أما أن تمتد أنظارهم وأفكارهم إلى مثل الحقائق التي اجتذبت إليها محمد عبده في مقدمة ابن خلدون فشيء لم يألفوه في دراساتهم ، ولم تجربه عاداتهم ، ولا يجدون في مقابلته إلا مثل تلك العبارة التي قالها الشيخ الانبابي حين اقترح عليه أن تكون مثل هذه المقدمة من الكتب المفروض على طلاب الأزهر أن يدرسوها ويحيطوا علما بمنهجها وأسلوبها وموضوعاتها .

ومن ذلك كان محمد عبده شديد الاعراض عن تلك التعليقات التي تدور حول النصوص ، مقدراً أن يكون أول ما يجب على الاستاذ أن يتحقق به هو أن يكون مستقل الفكر حر الرأي قادراً على أن يتناول المسائل العلمية بما أصابته بصيرته من تفتح ، وما كسبته من نضج ، لا أن تكون عالة على أمثال هؤلاء الذين لا يملكون من العلم إلا أن يرددوا هذه المماحكات ، وكان هذا الرأي الذي أخذ نفسه به يبدو واضحاً جليا في معالجاته للموضوعات التي يعرض لها ، والمسائل التي يتناولها . وأكبر الظن أن هذه الخلة نشأت عنده من مجالسة خال

أبيه ، ثم وجدت من جمال الدين ما دفعها وسددها وجعلها من ابرز خلاله وأدق خصاله ، وما وثق بينه وبين استاذه على الرغم مما بينهما من خلاف في المبدأ ، فأحدهما رجل سياسية ، السياسة هي هدفه الأول ، والآخر رجل علم بحكم النشأة التي نشأ عليها ، والحياة التي قدرت له فجعل الدرس العلمي أظهر ظاهرة فيها .

فالفرق كبير بين الجمهرة العظمى من شيوخ الأزهر وبينه ، إنه مزاج معتدل من العلم وما يستلزمه من مبادىء وقوانين والسياسة بقدر ما تقضي به عمومياتها ، وما تقف عنده خصوصياتها ، وليست هذه الخصوصيات إلا ما يمثله الأزهر الذي نشأ في رحابه ، بين من كانوا يفدون إليه من الأقطار الإسلامية ، واستاذه جمال الدين الذي لم يكن يقدر من العلم إلا ما كان ينتمي إلى العصور الأولى ، والذي كان له من نشأته في بيئه شديدة الاتصال بالسياسة ، ما جعلها تغلب عليه وتسيطر على نوازعه . ومن ذلك كان أخص تلاميذه إلى أن فرق بينهما موقف الدولة الاستعمارية من مجلة العروة الوثقى . فمضى كل منهما في طريقه الذي غلب عليه ، إلى أن استقر جمال الدين في الاستانة ومات بها ، وعاد محمد عبده إلى مصر ، يعالج من أمورها في حالتها الجديدة ما لابد من معالجته . وكأنما كان ذلك يمثل لوناً من ألوان الفرق بينهما ، أنه الفرق بين الاستانة التي كانت مركز السياسة كما تمثلها الدول التي كانت حريصة على أن تكون مجال نشاطها ، والقاهرة التي كانت في ذلك الوقت خاصة موطناً علمياً تهفوا إليه قلوب طلاب العلم في أنحاء العالم الإسلامي .

وهذا الفارق الكبير الذي كان يفرق بين محمد عبده وجمال الدين هو الذي كان يفرق بينه وبين شيوخ الأزهر الذين كانوا أكبر ما يعتزون به هو العلاقة التي تربط بينهم وبين القصر وكذلك كانت نظرة القصر إليهم ، ومبلغ استغلاله لهم ، بقدر ما كان أكبر ما يعتز محمد عبده به هو كيانه الشخصي ومنزلته من العلم والمعرفة ، ومكانته بين هؤلاء الذين يقدرونه قدره ، ويعرفون له مبلغ ما يؤديه

تعريفاً بمبادىء الإسلام الحقة ودفعاً لما يرمي به ، وطبيعي أن ينعكس ذلك كله وتردد أصداؤ ه في علاقته بالقصر ، فإذا هي تعاني قدراً غير قليل من الفتور ، بقدر ما كانت حميمة وثيقة في أول الأمر .

ولم يكن محمد عبده ليجد في نفسه شيئاً من الحرج في أن يصرح بما أنطبعت به نفسه في خلال رحلاته إلى أوربا وأفريقيا ، من مثل قوله في أحد هذه الفصول ، بعد أن ذكر ما كان من أثر رحلاته إلى البلاد العثمانية ، وقد استيقن مما كان يدور في ذهنه من منشأ مرض المسلمين . إنه الجهل بدينهم ، واتباع ما لم يكن منه والصاقه به ، ثم استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الأرض :

« وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوربا وأفريقيا ، فكان أثر الأسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الأمر ، وأثر الأسفار في أوربا قوة الأمل في أصلاح أحوال المسلمين . فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندي الأمل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك باصلاح ما افسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون أفراد ظلمتهم ، وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عندما أعود إلى دياري ، لكثرة ما ألاقي من العنف ، وشدة ما أصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من أنصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم في تمكين ظالمهم من رقابهم وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول ، لكني متى عدت إلى أوربا ، ومكثت فيها شهراً أو شهرين ، تعود إلى تلك الآمال ، ويسهل علي تناول ما كنت أعده من المحال . ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فإني لا استطيع تفصيله . ولكن هذا ما تحدثه الاسفار في نفسي » .

وفي هذا الحديث ما يهيج الشجون ويثير الخواطر من ذكر ما يتعرض له محمد عبده عندما يعود إلى وطنه من كثرة ما يلاقي من العنت وشدة ما يصادف من

المصاعب وسوء ما يرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم وشدة عداوتهم لأنفسهم وقوة رغبتهم في تمكين ظالمهم من رقابهم ، ولم يكن ما يعاني من ذلك خاصاً به ، لذلك الذي يخالف بينه وبين جماعة العلماء الذين اغفلوا حق الوطن عليهم ، وحق العامة من أداء ما يجب عليهم نحوهم ، وذلك إذ يقول فيما يحكي صاحب المؤيد المرافق له في هذه الرحلة :

« ولكن العلماء في انصراف تام عن شؤون العامة ، وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ، ووكلوا بعضها إلى العامة ، وجعلوا نصح العامة والخاصة ، أو الاشتغال بما يهيء لذلك من العمل مما لا يغني ، ولم تبق لأحد منهم علاقات مع العامة ، اللهم إلا أولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظاً أو مدرسي مساجد ، وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء ، وهم يفسدون أكثر مما يصلحون » .

هكذا كان حديث محمد عبده عن العلماء ، وهكذا كان ينشر في الصحف فيقرؤه الناس في كل ناحية ، وهكذا كان ما يتحدث به مصطفى كامل عند الخديوي عباس فيثير حفيظته ويهيج غضبه ، ولم يكن لمحمد عبده غير كرامته يحافظ عليها ، وشخصيته يمكن لها ، وقد أصبح مفتي البلاد ، والمرجع الأخير في أمور العباد ، ولم يكن ليعبأ بما يردد حوله ، وما كان مصطفى كامل يوغر به صدر الخديوي عليه ، ويهيج به حفيظة العلماء الذين كانوا يرون فيه طرازا غير طرازهم ، وقد اتخذ مسكنه بعيداً عنهم وأقبل على بعض الكتب يراجعها ويصحح ما يقع فيها ككتاب اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني مع مواظبته على السفر إلى بعض البلاد الإسلامية كالجزائر وتونس ، إذا كان يرى ذلك من أول ما يجب عليه ، ومن أول ما يعنيه أن يصل بذلك بين المشرق والمغرب ، فالقى في تونس درساً عن العلم والتعليم ، والقى في الجزائر درساً آخر عن سورة العصر ، وعاد إلى مصر ماراً بصقلية ، ولم يغفل عن زيارة السودان فزارها في شهر يناير سنة ١٩٠٥ فطاف في أنحائه ، وخطب في جميع أرجائه وفي ذلك العام أحس

بمقدمات المرض وبسببه عدل عما كان يرجعه من السفر إلى أوربا ، إلى أن طرقه الموت « في الساعة الخامسة بعد الزوال من جمادي الأولى الموافق ١١ يوليه سنة ١٩٠٥ » كما هو نص بما يقوله السيد محمد رشيد رضا في كتابه : تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

الأستاذ الإمام محمد عبده

في العام الخامس من القرن العشرين

إذا كان هذا العام الخامس من أعوام القرن العشرين هو العام الذي فجعت فيه الأمة الإسلامية والشرق العربي بانقضاء أجل الإمام الأكبر الشيخ محمد عبده ، في منتصفه ، فقد كان - إلى جانب ذلك - عام زيارته لجنوب وادي النيل في مستهلة ، وما كان له أن يفعله ، في نطاق ما كان قد التزم به من زيارة الأقطار الإسلامية ، واثارة ما يراه واجباً عليه من الروح الدينية ، كلما أتيح له ذلك . وإذا كانت شواغله العلمية قد بادرت به إلى العودة إلى القاهرة حين بلغت مسيرته أسوان ، فما ينبغي إلا أن يخصه بزيارة وحده ، في الوقت المناسب ، وهو شهر يناير ، فاعتزم ذلك ومضى إليه ، وأهله في غاية التشوق إليه والتطلع لمقدمه والاستماع إلى حديثه البارع يحثهم به على مداومة الاتصال بينابيع الشريعة والتمعن في أصولها ، وتغذية الضمائر بروحها .

وهكذا لم يكد يقضي هذا الحق حتى استشرف السودان لأيام أعياد متوالية ، في تنقلاته بين أنحائه ، واستجابته للدعوات التي لم تزل تلاحقه . وهو في كل ذلك شديد الغبطة بما يؤ دي من ذلك الواجب الذي ينبعث من باطنة نحو هؤلاء الذين عرفهم في مصر مثالاً للخلق الطيب ، ونموذجاً للبساطة وطهارة القلب وبراءة الضمير . والذين سمع عنهم وقرأ من سماتهم ما يدل على ما هم متصفون به من خلال شديدة الحرص على الكرامة والتطلع إلى مقومات

الشخصية الكريمة . وإذا كان هؤلاء الذين عرفهم في مصر على هذا النحو من الحرص على ينابيع الفطرة البرئية من الغثاثات والتكلفات فما أجدر المجتمع الذي أفاض عليهم بذلك أن يكون مجتمعاً قد تحققت فيه دواعي تلك الشمائل وبواعث هذه الخصال .

بهذا أقبل محمد عبده إلى السودان ، وبتلك الصور العقلية التي تكونت في باطنة عنه ذهب إليه ، وبذلك الذي كان يرى نفسه مسؤولاً عنه وعن تهذيبه وتشذيبه بما صار له من منصب ديني ، وما وكل من أعمال علمية يظهر بها الإسلام في صورته المثالية سافر إلى السودان ، وبمثل ما كان يغمر ضميره من ذلك استقبله أهله واحتفوا به ، ولولا ما كان يعلم مبلغ تبعته عنه في مصر ، قلب العالم الإسلامي ، لمد مقامه فيه ، ومـا كان أحـوجه إلى ذلك ، ولكنه كان شديد التقدير لما يجب عليه أن يمارسه في مصر من عمل علمي متصل ، ومن إشراف على هذه الهيئات التي وكل إليه الإشراف عليها . وربما كان قد أحس بما جعل ينتابه من أثر الجو في السودان ، وما كان يقدره إذا هو أطال مقامه به ، مما جعله يكتفي بما أتيح له أن يراه منه ، ويعرفه من أمره ، ويؤدي به بعض حقه ، فلم يكن إلا أن يبادر بالعودة إلى مصر ، يستأنف فيها ما كان مقبلا عليه قبل رحيله عنها .

رجع محمد عبده إلى مصر بذاكرة حافلة بما كان قد رآه في السودان ، وما كان يدور بخاطرة عنه ، ويؤمله له ، وكان جديراً به أن يترك لنا ما تأثر به في هذه الرحلة لولا إنه عاد إلى أعمال كانت ترقب هذه العودة ، وما كان له أن يغفلها . وإذا كان قد أعفى نفسه من بعضها . فإن له من باقيها مما يرى نفسه صاحب التبعية الأولى فيه ما هو جدير أن يستنفد وقته ويستفرغ جهده ، وذلك إلى جانب ما جعل يحس به إحساساً ما في قدرته على العمل ومواصلة الدرس .

ترى أكان ما أنفقه من جهد في هذه الرحلة مما جعله يحس بمثل هذا الفتور الذي ألم به ، والذي لم يكن قد عرفه من قبل ؟ لا يبعد أن يكون الأمر كذلك في

تقديرنا ، أما في تقديره هو ، فقد كانت بواعثه المعنوية أغلب عليه ، وبهذه البواعث لم يكن ليعبأ بما جعل يمسه من ذلك الفتور ، فمضى في سبيله ، مؤدياً ما كان ضميره يشير به ويدفعه إليه .

إلى أن كان ذات يوم ، وهو يتهيأ لأداء رحلته السنوية إلى بلاد أوربا ، فقد أحسن بالوجيعة تغلبه على أمره ، وتصرفه عما كان قد اعتزمه ، وكان قد أخذ إلى الاسكندرية طريقه ، ونزل هنالك في بيت أحد أصحابه بحي الرمل ، وهو محمد بك راسم ، فوافاه من هذا الوجع ما لم يجد له دفعاً ، وزاره الأطباء فعلموا إنه يعاني من تورم في الكبد واختلال في المعدة ، أو ما يشبه ذلك ، ولكن قضاء الله قد حم ، وأجله في كتابه كان قد حان ، فما أن كانت الساعة الخامسة أو السادسة من مساء اليوم الحادي عشر من شهر يوليه حتى أطبقت عليه المنية ، وأنتهت بذلك هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال ، وابتدأ بذلك عهد جديد في تاريخ مصر ، كما اتخذت الاجراءات ليعود إلى القاهرة ، الموطن الذي شهد هذه المرحلة الجليلة من مراحلة ، ويصلي عليه في الجامع الأزهر الذي ارتبطت حياته به منذ أقبل عليه صغيراً ، ومازال يعمل له ، وينشد اصلاحه ، ويفكر في أمره ، على الرغم مما كان كثير من أهله يقابلونه به من جحود له ، وإنكار لما يبذله ، وتنكير لما يكتبه .

وقد ابتدأ هذا العهد بجنازتين أو بعدة جنائز بقدر ما كان يستقبل به من كل محطة يقف القطار عند هابين الاسكندرية والقاهرة ، فما أسرع ما شاع خبر وفاته ، فكان لذلك أثره الذي خالج شغاف القلوب ، ودفع أصحابها إلى لقائه في المحطة ، إلى أن بلغ محطة القاهرة ، ومن هنالك ابتدأت الجنازة الكبر ى إلى الجامع الأزهر ، وفي خلال ذلك كانت مآذن القاهرة قد أخذت على نفسها أن تنذر الناس بهذه الفاجعة ، ثم استأنفت الجنازة مسيرتها إلى قرافة المجاورين . وقد التزم المشيعون بما كان قد أوصى به أن يوارى دون صوت كما كان قد ألف الناس وما صحبه في هذه الفترة إلا صوت ث واحد يصيح ، ولم يعرف صاحبه :

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

وانصرف المشيعون متفرقين ، كل إلى مثابتة ، وقد حفلت ذاكرتهم بما كان من شأنه في حياته ، وما كان شديد الحرص عليه في كل طور من أطوارها ، ولكن ذلك الصوت اليتيم الذي قرع آذانهم هو الذي بقيت أصداؤه ، يفسره كل منهم بما عرف من شأنه . فإذا جفت هذه الأصداء ، وانصرف كل واحد إلى ما يعنيه في حياته ، وتساءل الناس عما كان من أمر هذا الرجل وكأنه لم يكن ، جاءتهم هذه الكلمة متنبئة بما عسى أن يصير إليه قدره ، بعد أن تمضي سنوات ثمانون على وفاته .

وها نحن أولاء على مشارف هذه الفترة ، فقد أصبح من واجبنا أن نرجع البصر إلى هذه الحياة نتأملها ونتمثلها ونتغلغل في خلالها ، ونستحيي ما لعله قد خفت أو خمد فيها ، ونبين ما لا يزال يلح علينا من أن هذه الفترة التي تفصل بيننا وبين وفاته هي الفترة التي حفلت بالعوامل المختلفة التي هبت على تلك الشعلة فأخمدتها ، ثم أتيح له من بعد ، في خلال الأحداث التي حفلت بها ما أيقظها ، وقد داخلها من العوامل ما جعلها تبدو جديدة ، ولكنها على أية حال راجعة في بعضها إلى هذه الحياة ، آخذة منها ، ومنبعثه عنها ، ومتأثرة بها .

* * *

كان ذلك البيت الذي انبعث في عقب دفن محمد عبده هو الصدى الوحيد الذي عبر عن مبلغ الفجيعة التي أصابت الناس ، والذي أفلت من الرقابة التي أداها صديقة الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان حين هم بعض المشيعين أن يمضوا على ما كانت العادة قد جرت به ، عند الصلاة عليه ، أو عند الفراغ من دفنه ، إذ ذكر ما كان قد أوصى به ، وكذلك فعل صديقة حسن باشا عاصم ، أشفاقاً على المشيعين الذين قاسوا تعب السير ما بين محطة مصر ومدافن القرافة في صميم فصل الصيف ، وأن من الأمثل ارجاء ما كانوا ينتوون قوله إلى حفل

الأربعين .

وما كان هذا الحفل ليتسع لكل هذا الذي كانت تفيح به نفوس القوم ، وإنما هو حفل محدود الزمان والمكان والغاية ، وإن لدى المنظمين له من الوقت ما ينبغي أن يستغل في الاعداد له .

فانتهى ذلك إلى أن يقصر القول على خمسة يمثل كل منهم جانباً من جوانب الحياة المصرية التي شارك الفقيد فيها ، ورئى أن يكون هؤلاء الخمسة هم صديقه حسن باشا عاصم ، وحسن باشا عبد الرازق ، والشيخ أحمد أبو خطوة ، وقاسم بك أمين ، ويبقى بعد ذلك الشعر فيكون له ممثلان : أولهما حفني بك ناصف ، وثانيهما حافظ إبراهيم .

فإذا كان يوم الأربعين ، وقد أذيع موعده في الصحف ، فقد توافد على مكان الحفل إلى جوار القبر الألوف المؤلفة حتى ضاق بهم ، بل ضاق بهم أيضاً الفضاء الذي بجانبه ، وبدا لكل إنسان كأن لم يبق في القاهرة أحد من ذوى الرأي والعلم إلا بادر إلى هذه المشاركة ، وأن كثيراً من أهل الاسكندرية كانوا حراصا على حضوره ، وكذلك كان شأن سائر جهات مصر شماليها وجنوبيها . فكان هذا الزحام الدافق دليلاً على مبلغ ما كنت تنطوي عليه القلوب من حب له وتقدير لمكانته .

فإذا بدأ الحفل فقد استهل بتلاوة بعض آيات القرآن الكريم ، ثم عقب على ذلك هؤلاء الذين كانوا قد أعدوا لهذا اليوم ما خصهم من الحديث الذي عنى الأستاذ محمد رشيد رضا بإيراده في الكتاب الذي وضعه من أجل ذلك .

كان أول المتكلمين حسن باشا عاصم نائب الجمعية الخيرية الإسلامية وكأنما مكنت له صداقته من الإلمام بوجوه حياته منذ مولده في محلة نصر سنة ١٢٦٦ إلى وفاته في الاسكندرية ، فتتبعتها واحدة واحدة ، منذ كان مدرساً في الأزهر وفي دار العلوم ومدرسة الألسن إلى أن نفي من مصر ثم عاد إليها فتولى

بعض مناصب القضاء ، إلى أن أسند إليه منصب افتاء الديار المصرية وما ترتب على ذلك من عضوية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومجلس شورى القوانين ، ورياسته لجمعية أخبار الكتب العربية ، إلى غير ذلك مما شارك فيه مشاركة جادة ، ومما كان من المؤسسين له كالجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة ١٣١٠ .

ثم قام في عقبه حسن عبد الرازق باشا ، فادى في خطابه عنه حق الصديق الذي « أصفاه الوداد ، وأخلص له الولاء ، وعرف من كمالاته وفضائله وجميل مزاياه وجليل شيمه ، ما يزيد ألم المصيبة فيه ، ويضاعف الحزن عليه ، حتى أخذ الأسى بمجامع قلبه ، وعقد لسانه ، ومزق درع اصطباره » كما هو نص ما استهل به خطابه ، وحق المؤرخ الذي مزج بين مشاعره وأحداث عصره ، وخاصة حين كان زميلاً له في مجلس شورى القوانين ، وقد عين فيه في الخامس والعشرين من شهر يونيه سنة تسع وتسعين فكان واسطة العقد فيه ، بما كان يملك من قوة حجة وبراعة في الإدلاء بها ، وما كان طبيعياً أن ينشأ عن ذلك ، مما وفاه صاحب هذه الخطبة حقه ، إذ يقول :

« التفت حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة ، وسداد الرأي وطهارة النية ، وكان إخوانه من رجال الشورى يلجؤون إليه إذا اشتبه الأمر وخفى الصواب ، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب . وكان مع هذا أسرع الناس قبولاً إلى الحق ، وأوسعهم صدراً ، فإذا سقت إليه الحق هشت له نفسه ، وقرت به عينه ، ولم يصرفه عنه تمسك بالرأي ولا تعصب لمشرب . وكثيراً ما كنا نباحثه في أمر اختلف النظر فيه بيننا وبينه ، فيرجع إلينا ، ويوافق رأيه رأينا . ولم نر مثله في احترام الآراء ، مادام مصدرها شريفاً لم يشبه الغرض . ولقد كنا نختلف معه في رأي ، ويجاهد كل منابر أيه ويدعو إليه ، اعتقاداً منه أنه الحق . ولا نزال بعد ذلك أخلص الناس سراً واصفاً هم ودا » .

هذه فقرة حرصت على أدائها بنصها لمبلغ ما تدل عليه من أسلوب حسن

عبد الرازق في تفكيره ، ولما يفرضه من هذه الناحية من نواحي تقدير محمد عبده وحسن بلائه في هذا المجمع ، وإنه لم يكن كما تردد بعض الألسن عنه شديد الاعتداد بكلامه والإعتزاز برأيه .

فإذا أنتهى حسن عبد الرازق من خطابه وقف على المنصة من بعده الشيخ أحمد أبو خطوة ، المدرس بالأزهر ، والقاضي بالمحكمة الشرعية العليا .

وإذا كان حسن عاصم يمثل طبقة اصدقائه ، وكان حسن عبد الرازق يمثل طائفة أصحابه وزملائه ، فإن أبا خطوة يمثل جماعة تلاميذه في الأزهر . وكان ذلك مما نوه به في مقدمات خطابه إذ يقول : « وهأنذا ذاكر ما عرفته من أيادي المرحوم على الأزهر والأزهريين ، بعد ذكر اشتغاله بالعلم والتعليم ، لأنني واحد منهم ، ومخالط له فيه » . وقد كان ذلك أمراً طبيعياً أن يكون أول ما يعني به رجل مثله هو التنوية بما أسداه إلى الأزهر والأزهريين من إياد ، وما أسبغه عليهم من مزايا منذ كان في بيروت ، إذ كان مما أثر عنه فيها إنه كان كثير التنوية به وبما يصيب المسلمين من صلاحه ، وإنه « لا يرتاح ولا يهدأ خاطره إلا إذا صلح هذا المكان ، وإنه لابد أنه يجهد نفسه ويعمل فكره ويعمل في صلاحه ، وأنه إن مات في هذا السبيل مات قرير العين » ، كما هو نص ما نوه به في هذا الخطاب ، ومهد به لما ذكره بعد من اتجاهه إليه ورعايته له .

وعلى هذا الجانب من جوانب الحديث عن مآثر محمد عبده اقتصر حديثه ، متنقلاً من الناحية المادية إلى الناحية المعنوية ، لم يكد يغفل شيئاً يتصل بهذه أو بتلك ، مؤيداً كلامه بما أتيح له أن يعرفه من أرقام ، وما شهده بنفسه من سوء عيش واضطراب نظام .

وكان مما ذكره من هذه المآثر مما لم يعرض له أحد من المتحدثين عنه أنه لا اشتغل مع الحكومة في إنجاز المشروع القاضي بفتح مدرسة يتخرج منها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون ، فرضت منه الحكومة بذلك ، وشكلت لجنة

تحت رياسته لتصنع نظاماً لهذه المدرسة يبين فيه ما يصرف عليها كل سنة ، وما يعلم فيها من العلوم ، والمدة التي يمكثها المتعلم فيها ، وكيفية إدارتها ومراقبة سير التعليم فيها ، فكمل ذلك في أقرب وقت ، على أحسن ما يكون من الوضع ، وقدم المشروع إلى الحكومة قبل سفره إلى الإسكندرية بأيام قلائل . وقد علمنا أن الحكومة تقبلته أحسن قبول. . . » .

وإذا كان الشيخ أبو خطوة يمثل ذلك الجيل من إجلال الأزهر بين الذي تلقوا عن محمد عبده وتأثروا به وانحازوا إليه ، فكان ينبغي أن يكون في مقابله من يمثل هذا الجيل من أبناء المدارس المصرية والذين مزجوا بين التعليم المصري والتعليم الأجنبي ، والذين ينتمون إلى المحاكم المختلطة ، كما كان أبو خطوة ينتمي إلى الطرف المقابل ، وهو المحاكم الشرعية .

ذلك الرجل هو قاسم أمين الذي كان أنذاك مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية ، وكان لهذا الإزدواج الذي تميزت به شخصيته أثره فيما افتتح به خطاب التأبين الذي ألقاه في هذا الحفل ، وذلك إذ يقول : « إذا أصيبت أمة من الأمم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الأدب أو السياسة كانت تعتمد عليه في إصلاح شأن من شؤونها قال قومه : ليس في الوجود إنسان لا يعوض ، ووجدوا في الحال بين أهل طائفته أو صنافته من يسد الفراغ الذي تركه ، ويأخذ مكانه .

أما الحال عندنا فليس كذلك . مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لا أقول ذلك محاباة لصديق كانت محبته من أسباب الشرف والسعادة لشخصي ، ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين ، حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم أحد بشيء منها مدة وجودهم بين الأحياء .

وإنما هذا هو الحق الذي يجب إعلانه اعترافاً بالفضل لمصري وصل إلى اسمي مقام لا يمكن أن يناله إنسان في هذه الحياة . مقام لم يستمد وجوده من منصب عال في الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طائلة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس . مقام اهتدى إليه بشعوره ، واكتسبه بجده وعمله ، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته ، وقدم فيه بعلمه وعمله . مقام مكنة من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الخطة التي رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هيأه لها ، مقام الإمامة بأوسع معناها ، تركه الشيخ محمد عبده ، ولا يوجد في مصر واحد يجرؤ على أن يدعى فيه استحقاقاً بعده . لهذا رأينا مرض الإمام ويوم وفاته حركة في شعور الأمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها » .

بهذا بدأ قاسم أمين خطابه ، وبمثل هذه الشفافية أطلق على هذه الفترة حكمه ، فأثار ذلك في نفسي شعور الطمأنينة إلى ما كنت قدرته من أن فترة حياة محمد عبده تعتبر فترة فريدة في التاريخ المصري ، جديرة بإن ترسم باسمه ، وأن هذا التاريخ الذي انطلق فيه من هذا العالم إلى العالم الأخير جدير بأن يكون من التواريخ الحاسمة ، إذ يفصل بين عهدين من عهود الحياة المصرية ، وطبق الظلام على أولهما لولا ما كان يبص منه ، ثم تكاثف هذا الظلام فانحسر ما كان يشع منه ، ومازال هذا التكاثف حتى يقضي الله فيه قضاءه ويبرم حكمه .

وإلى جانب هذه الطمأنينة التي داخلتني ، وأن لم تخل مداخلتها هذه من إثارة مخاوفي وأهاجة خشيتي ، إذ وجدتني منساقاً مع قاسم أمين بين الأمل واليأس . إلى جانب هذا لا أكاد انظر في أحداث هذه الثمانين عاماً حتى يملأ الهلع قلبي ويعجز حسي ويطبق على أنفاسي ، وما أكاد ألمح بارقة أمل حتى تغشاها سحابة مظلمة تطفئها . وحسبنا أن نرى المصير الذي صار إليه الأزهر الذي استبشر قاسم أمين بما قدر له من تأثر حميد لم يستطع إلا أن ينوه به ، في لهجة

دالة على ما يرجوه له من الإزدهار والتقدم في سبيل التطور المرجو نفعه والمأمول ريعه ، ولكن بشرط أن يرعوى المفسدون عما هم آخذون فيه منصرفون إليه ، إذ يرون « تجارتهم رابحة ، يتكلمون بصوت عال ، وينشرون ما يوافق مصالحهم ، ويختلسون ثقة الجمهور ورضاء ولاة الأمور » كما يقول هو في صفتهم ، معرفاً ببعض خلالهم . في مقابل الصادقين الطيبين الذين لا يستعملون حريتهم ، ولا ينتفعون منها بشيء . « يتكلمون بصوت منخفض أو لا يتكلمون ولا ينشرون أميالهم وآراءهم ، ويبتعدون عن ولاة أمورهم ، ويترفعون عن المناقشة والجدال ، ولا يميلون إلى الجهاد في سبيل الحق والعدل والمنفعة العامة » ثم يعقب على هذا بقوله :

« إذا دام هذا الحال كان نصيب ما شيده من البناء الخراب والسقوط،أما إذا عدل محبو الاصلاح عن خطتهم ، وجاهروا بأفكارهم ، ودافعوا عن آرائهم ، وتركوا ما اعتادوا عليه من الافراط في الحرص على راحتهم ، والمسالمة الزائدة عن المعقول ، وساروا في الطريق الذي رسمه لهم إمامهم ، ملهمين بروحه ، مهتدين بنوره ، مقتدين بسيرته ، معجبين بما أظهره في حياته من علو النفس وشهامة الخلق وشجاعة الرأي وثبات العزيمة ، فلا ريب أن البناه يكمل ، والإصلاح يتم ، ويحقق ما كان أستاذنا وإمامنا العزيز يريده ، وما يتمناه كل مصري من الشرف والمجد والسعادة لأمته » .

وبهذه العبارة ينتهي هذا الخطاب الذي يمثل الحالة النفسية الغالبة على قاسم أمين ، كما يصور ما اعتاده القوم من خمول وتخاذل بعد وفاة محمد عبده . وذلك ما يفتح السبل أمام مشاعر الخوف والخشية التي تسيطر على ، ويضعف من موجات الأمل التي كان ينبغي أن تسودني .

وبعد فقد قرأت الخطب التي قيلت في حفل الأربعين ، وحاولت أن أتغلغل في بواطن عباراتها ، فلم يكد يستوقفني منها ، ويبعث في الرغبة إلى معاودة قراءتها ، إلا هذا الخطاب ، ولم يكد يثير مشاعري نحو ما صار إليه المجتمع

المصري بعد أن فقد إمامه إلا ما كان ينتشر فيه من عبارات دالة أوضح الدلالة ، على الرغم بما كان يحيط بها من محاولة الإخفاء ولم تكن إلا محاولة لا تلبث أن تتبدد ، ثم يعود الخوف فينتشي ويتجدد .

لكأنما كانت هذه المشاعر التي جعلت تتسلل إلى نفسي فتثير مخاوفي تمهيداً لما كان السفر قد جعل يعبر عنه تعبيراً حاراً صادقاً في قصيدتي حفني ناصف وحافظ إبراهيم اللذين وقفا أمام الجمهور الحاشد ، يندبان ما امتحن به الإسلام من فقد إمامه المدافع عنه والمنتصر لـه ، والداحض لما يتقوله المتقولون عليه ، ويتهمونه به ، وكان ما ينشدانه من ذلك تعبيراً صادقاً عما كان هذا الجمهور المحتشد الذي لم يكن يقل عن خمسة آلاف رجل يشعر به في صميم قلبه ، فما أسرع ما كان يتجاوب معه ، دالاً على ذلك بالعبرات يسكبها والزفرات يصعدها ، كما ذكر ذلك الأستاذ محمود رشيد رضا فيما عقب به على تلك القصيدتين ، وهو يحكي خبر هذا الحفل الذي استمر حتى آذنت شمس النهار بالمغيب فتليت آيات القرآن إشعاراً بانتهائه .

وكأنما كان اختيار هذين الشاعرين مبنياً على مبلغ صلة كل منهما بمحمد عبده في حياته ، فقد كان حفني ناصف ممن عرفوا بقول الشعر في المناسبات التي تقتضيه ، والعبث بألوانه المختلفة في الحالات التي تستدعيه ، ومن ذلك كانت له صفة الشاعر ، كما كانت له حياته الاجتماعية التي جعلته قريباً إلى هذه الأوساط الأدبية ، ومن ذلك لا يتعد ما ذكره ولده الذي عنى بجمع شعر أبيه من خبر قصيدته هذه من انه أكملها وهو في طريقه إلى إلقائها في ذلك الحفل فكان ما لا بد أن يكون من ذلك من مظاهر العجلة وصور الارتجال . أما الشاعر الآخر ، حافظ إبراهيم فكان ممن وقفوا أنفسهم للشعر يعبر به عما يخالج نفسه ويداخل ضميره . ومن هنا كان الفرق بين هاتين القصيدتين اللتين قدمت أولاهما لمنزلة صاحبها الاجتماعية ، ثم جاءت من بعدها القصيدة الأخرى رعاية لما كان له من منزلة في نفس الفقيد .

ولكنهما - مع ذلك - يشتر كان في تصوير ذلك الجو الحزين الذي فرض على الناس من هنا وهنا أن يقضوا حقه بالمبادرة إليه والمشاركة فيه ، فكان ذلك الزحام الذي امتلأت به تلك الساحات وفاض عنها ، وكانت هذه المظاهر المعبرة عن مبلغ التأثر والإنفعال الحزين التي لم يجد الأستاذ محمد رشيد رضا بدأ من الإشارة إليها ، بعد إيراده قصيدة حافظ إبراهيم ، ثم عقب على ذلك - فيما يبدو لنا - بالإشارة إلى سابقة حفني ناصف .

ذلك هو ما تشعرنا به قراءة هاتين القصيدتين وما يبدو في أولاهما من مظاهر الصناعة الشعرية ، وفي خلالها من مظاهر التكلف الحليق بأن يصحح ما قاله ولد الشاعر عنه ، أما الثانية التي تعبر عن انفعال حافظ إبراهيم فهي الجديرة بما عقب به رشيد رضا عنها ، وخاصة حين يستعيد كاتب هذا الفصل صورته في موقفه ، وطريقته في أدائه ، ويتمثل ما ينبغي أن يكون أمره حين يقرأ في قصيدته ما يمثل هذه الحالة من مثل قوله في ختامها يذكر حفاوته به وتعهده له ، وما كان عليه أمره قبل ، ثم حلت عليه الوحشة بعده :

فيا منزلا في عين شمس اظلني	وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى	وفيه الايادي موضع اللبنات
عليك سلام الله ! مالك موحشاً	عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا	تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة	ومطلع أنوار وكنز عظات

وإذا كانت هذه الأبيات تمثل مشاعره التي عادت به نحو هذه الدار التي أقفرت وأوحشت بعد أن غادرها صاحبها ، وأذكرته صورتها قبل أن يلم بها ما أصابها ، فإن استهلالها يدل عن الانفعال الشديد الذي أطبق عليه فملأ قلبه باليأس من كل خير كان يتهلل به حين كان يجلس إليه أو يتمثله وهو يغمر جلساءه باشرافة وجهه ، وأحاديثه التي تنبع من إسلامه الصادق وعقيدته البريئة ، فإذا ذلك كله يتجمع في قوله :

سلام على الإسـلام بعـد محمـد سلام على أيـامـه الـنـضـرات
على الـدين والـدنيا، على العلم والحجى على الـبر والتقـوى، على الحسنات
لقـد كنت أخشى عادي الموت قبلـه فأصـبحت أخشى أن تطـول حيـاتي
فوا لهـفـى ، والـقـبر بيني وبـيـنـه على نظـرة من تلكـم الـنظـرات
لقـد جهلوا قدر الامـام ، فانـزلـوا تجـاليـده في موحش بفـلاة
ولـو اضـرحـوا بالمسجدين لانـزلـوا بخـير بقـاع الأرض خير رفـاة
زرعـت لنـا زرعـا ، فأخـرج شطؤه وبـنـت ، ولمـا تجتن الـثـمـرات

وبين هذه الخاتمة وما أثارت في نفسه من ذكريات لم تلبث أن تحولت إلى مصادر وحشة ، وهذا الاستهلال الذي عرض له وما خالجه به ، معنى يتمثل هذه الحياة الحافلة بما بذل فيها من جهود للإصلاح ، وما أنفق فيها من دحض الاعتراضات التي وجهت إليه ، كما جعل يتمثلها في الرجة التي ألمت بالشرق في جميع أصقاعه ، وكذلك فيما شارك به في الحكومة وفي مجلس الشورى وما إلى ذلك فتحولت به هذه الهيئات من مظاهر موات إلى مظاهر رافعة صارت مصر بها قائدة الإنسانية في مجالات الجلال والعزة ، لولا ما ألم بها من اختطاف هذا الإمام .

* * *

أحسب أن محمد عبده لم يصبح من أصحاب المنزلة العالمية إلا بعد أن اتسعت آفاقه ، وتعددت وسائلة للإحاطة علماً بالآراء المعارضة له ، فأما اتساع آفاقه فقد مكن له منه ما بلغه من منزلة رفيعة في مصر ، وما كان الأزهر يمثله من عناصر المجتمع الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها . وأما تعدد وسائله فقد أصابه بما كان يتاح له أن يطلع عليه من الأبحاث المعارضة لروح الإسلام ، وما كان يحسه من وجوب التصدي لها وبيان ما يداخلها عنده من فساد أو خلل وإلى جانب ذلك كان ما تتبوء مصر من مكانه علمية مما يأذن لاسمه أن يصبح معروفاً مذكوراً عند علماء الإسلام وعلماء العرب جميعاً .

وقد مضت الأمور على رسلها ، حتى إذا فجأه الموت ، فقد كان ذلك بمثابة رجة عنيفة أصابت العالم كله لا مصر وحدها ، حتى لقد اعتزم أحد شعراء مصر أن يخص رثاءه له بديوان على حدة . وقد أورد السيد رشيد رضا من ذلك أكثر من قصيدة . أما ما عدا ذلك ، فقد نجد التعبير عنه في جملة ما أورد من ذلك من تعازي الأقطار والأمصار الإسلامية والشرقية ، إلى جانب ما عنيت بنشره الجرائد الأوربية .

ولكننا ، في هذا البحث ، نجتزئ من ذلك كله بفصل نشرته جريدة الديلي كرونيكل الانجليزية لأحد الكتاب الانجليز فيها ، وهو هارولد سبندر . وكان قد زار مصر ، وحرص في هذه الزيارة على أن يمضي بعض وقته « في مزرعة المستر ولفرد بلونت الأنيقة ، المجاورة للمطرية بالقرب من القاهرة ، فكتب في ذلك فصلاً كان من جملة ما احتوى عليه الجزء الثالث من أجزاء السيد محمد رشيد رضا عن محمد عبده وهو هذا الفصل الذي لا يسعنا إلا أن نشير إلى مكانه في هذا الجزء (ص ١٨٠ حتى ١٨٤) .

ففضلاً عما فيه من الدلالة على حرص محمد عبده على زيارة أصدقائه وجيرانه ، فإن فيه كثيراً مما يجلو بعض جوانب حياته ، ومفاهيمه العقلية خالصة بريئة . وما يدلنا على بعض عاداته في مثل هذه الزيارة التي أداها إلى صديقه المقيم قريباً منه ، وأحاديثه التي كان يفيض فيها فيدل بها على بعض ما كان يسود حياته ، وما كان يؤثره في أواخر هذه الحياة .

وبينما كان الرجل يتحدث إلى المستر بلنت عن أحداث الثورة العرابية إذا هو يسمع طقطقة حوافر فرس ، فنظر فإذا صديقة الذي كان قد وصفه بأنه من أشهر رجال مصر ، إنه محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فما لبث أن قال : « ها هو الرجل عينه ، فالتفت مثله ، فإذا بصورة إنسان يقول رائيها إنها برزت من كتاب العهد القديم . رأيت رجلاً حسن البزة ، جهيرا ، ممتطياً فرساً عربياً كثياً جميلاً مقبلاً نحونا على هونه ، عليه الاردية الطويلة التي لا تزال تمنح الإنسان في

بلاد الشرق رونقاً ورواء ، وفوق رأسه العمامة الكثيفة التي هي الوقاية الحقيقية من حر الشمس .

ولما انتهى إلينا ترجل وتلطف في تحيتنا ، وتناول معنا فنجان شاي ، وأنشأ يحادثنا بالفرنسية الصحيحة .

كان حديثه حديث مراقب مفكر ، وقف يرقب الحوادث من مكان بعيد ، وتمنى فيما سبق أماني كباراً ، ولكنه تخلى عنها تخلياً كلياً ، وكنت ألمح في عينيه ذلك الابتسام المشوب بالكآبه والرحمة الذي لا يرى إلا في وجوه من قاسوا كثير من الأهوال والشدائد » .

هكذا كان أول انطباع انطبعت به صورته وتأثر بها المستر هارولد سبندر في أول لقاء له معه ، وأول مجلس يجلسه إليه ، إلى أن جرى الحديث مجراه ، ومضى في سبيله .

فأخذ يحكى عنه ما كان يتحدث به من كراهيته للسياسة ، ونفوره منها ، وقوله في ذلك السياق : « لقد طلقت السياسة فلن أشتغل بها بعد » . وتطليقه السياسة أمر طبيعي بعد ما جرى من مشاحنة بينها وبينه في الفترة التي كان يصدر فيها مجلة العروة الوثقى مع أستاذة جمال الدين الأفغاني ، ورأي ما رأى من تكالب الدول الاستعمارية عليهما ، ومحاولتهما الحيلولة بينهما وبينها ، فعاد من بعد من باريس معتزماً أن يأخذ نفسه في الحياة بما كانت قد بدأت به ، من الاكباب على العلم ، ومداومة الدرس ، ومهادنة من يرى مهادنته من رجال الاستعمار ، وتهيئة الأمة المصرية في هذه الناحية ، فقد أصبحت عنده الجديرة بأن تبلغ بها الغاية التي يصبيوا إليها ، والخليقة بأن تصل بها إلى غايتها . وكذلك كان أصحابه الذين كانوا يعاونونه في إصدار الجريدة الرسمية ، والذين أصيب منهم من أصيب بالنفي معه ، وبقي الآخرون الذين لم يجد الاستعمار ما يدينهم به ، ويعاقبهم من أجله .

لقد شارك في الفكر السياسي فترة وجوده مع جمال الدين في مصر ، وفترة مشاركته في اصدار العروة الوثقى في باريس ، وأتيح له خلال هذه الفترة أن يتبين كثيراً مما كان يداخل حياة الأمة الفرنسية من نزعات ، وما يمر بها من تيارات ، كما شارك في السياسة قبل أن يقضي عليه بالدخول في سجن قصر النيل ، وما جعل يلهمه ذلك من مراجعة حياته الماضية مع رياض ومع عرابي ، فيرى أن بين فكره وفكرهم بونا بعيداً ، وقد انتهى به ذلك كله إلى الاقتناع بأن خير ما ينبغي أن يشغل به نفسه هو محاولة اصلاح ما كان محتاجاً من قبل إلى الاصلاح ، إلى أن جاء الانجليز فضاعفوا فساده . وزادوه اهمالاً على أهماله .

ذلك هو ما تراءى لمحمد عبده وهو يتولى من شؤون مصر ما لم يكن بد من أن يتولاه بنفسه ، ويبذل فيه غاية جهده ، من أمور المحاكم الشرعية ، وشؤون الأزهر الذي يمثل الأمة الإسلامية ، ويعد لها حكامها ويهيئ لها قادتها ، والذي بفضل ذلك أصبحت مصر صاحب المكان الأول في هذه الأمة ، والمالكة للوسيلة الأولى من وسائل اصلاحها . فإذا صلحت هذه الوسيلة صلحت أمور هذه البلاد ، أما إذا أهملت وتركت لما هو مقدور لها من التراجع فلابد أن يصيب تلك البلاد عدوى هذه الحال ، وتصبح مستعدة لتقبل ما يدبر الاستعمار لها ، وما يقضي به عليها .

بمثل ذلك كان تفكير محمد عبده وحديثه كلما خلا إلى صديقه هذا الذي اتجه إليه راكباً حصانه وإلى من معه من زوارة الذين يحرصون على رؤيته واجتلاء ما يتاح لهم عنده ، فكان من محاسن الصدف أن أقبل محمد عبده في ذلك الوقت ، وكان طبيعياً أن يدور الحديث حول ما هو ظاهر في الإدارة المصرية من تولي غير القادرين الذين تنقصهم التجربة والخبرة أمور مصر ، فما يكون جواب محمد عبده على هذه الملاحظة إلا أن السبب في ذلك هو هذه الحكومة الأجنبية التي وضعت بين أيديها أزمة الأمور في مصر ، وليس لديها من سداد التقدير ما يمكن لها من وضع الأمور في نصابها ، إذ « لا شيء أقرب إلى الغش والانخداع

من حكومة أجنبية » .

وكأنما كان ذلك هو المنفذ الذي استطاع ذلك الزائر أن يطل منه على حقيقة ذلك الرجل الذي قال بلنت في صفته إنه رجل من أشهر رجال مصر ، وإنه يتولى في مصر منصب الافتاء فيها ، وهو بهذه الصفة جدير أن يؤخذ مظهره وكلامه مأخذ الجد ، وأن ينتبه إلى ما يعبر عنه ويقوله في هذا الصدد ، ومن ذلك قول هارولد سبندر عنه :

« غير أن هذه المعروضات من آرائه كانت نادرة ، لأن عقله في الحقيقة كان قد مر على هذه الأفكار وتجاوزها إلى ما هو أدق منها من النتائج ، فإنه كان في سنى نفيه الطوال دائم الفكر في عيوب الشرق ، ورجع من منفاه مملوءاً حمية جديرة » .

هكذا كان يرى سبندر مدة النفي التي قضاها محمد عبده في بيروت فترة استقرت فيها أفكاره وتقلب فيها أمره بين ما أتيح له أن يشهده هنا وهنا ، فكانت نهاية ذلك هو ما عبر عنه بقوله : « وكان يريد ، أن يؤثر في نفوس الناس بما هو أدخل فيها من السياسة ، فكانت سياسته عبارة عن دعوة إلى الحرب الفكرية . وقد سألنا ، وهو من المسلمين المستمسكين بدينهم : لماذا يديم الإسلام العصري محاربة علم الغربيين ، ولماذا لا يستمسك أهله بآدابهم الدينية ؟ بل لماذا لا يرجعون إلى ما كان عليه أسلافهم من التحمس في طلب العلم ، أعني ما كان لمتنوري المغاربة من حرية الاعتقاد الذي صارت به الأندلس ينبوع نور وعرفان ؟ بل لماذا لا يفكرون في مقصد نبيّهم نفسه؟ » .

ذلك هو ما كان يشغل فكر محمد عبده في هذه الفترة ، وذلك هو ما كان يسيطر على رأيه ، وهو بعيد عن هؤلاء الذين يمثلون له فيصدونه عن المضي في هذا الذي عبر عنه من أن العلم لا يفرق بين مسلم وغير مسلم ، وإن لذلك شواهده في ماضي التاريخ الإسلامي ، في عصور إشراقه ، وفيما كان يقصد إليه

ويدعو إلى بلوغه رسول هذا الدين نفسه .

ثم يقول في عقب ذلك : « أن عملا واحدا من أعمال المفتي يدل على شدة سعيه في بلوغ غرضه ، وفرط ولعه به : إنه كان كثير الإعجاب بالحكيم هربرت سبنسر ، وكانت نفسه تائقة لزيارته ، وكان سبنسر إذ ذاك شيخاً كبيراً ممتنعاً من مقابلة الناس ، بل جافياً في مقابلة المعجبين به . غير أن همة المفتي قد ذللت كل هذه الصعاب ، فاقنعه المستر بلونت بان يقابل هذا المصري القاصد إلى زيارته ، فقطع له المفتي أجواز البحار إلى انجلترا لمحادثته . ويا له من اجتماع باهر تلاقي فيه الشرق والغرب » .

وفي هذا الحديث ما يدلنا على خلة من خلال محمد عبده العلمية من ناحية تقديره للعلم ، ومن ناحية حرصة على لقائه رجاله ، لا يصده عن ذلك اختلاف الدين أو تغاير المذهب ، فسعيه إلى لقاء هربرت سبنسر قل أن نجد من عني به من الرجال الذين أرخوا له ، ومازال به هذا الحرص النابع من تقدير الفكر كما ينبغي أن يقدر . والاهتمام بالمعرفة كما ينبغي أن يكون الاهتمام بها ، حتى ظفر بذلك ، واستحق أن يوصف اجتماعه بإنه اجتماع باهر بين الشرق والغرب ولعل المرجع الأكبر لهذه الصفة هو ما أتيح له من هذا من بث قوة الأفكار الغربية - كما يصفها هارولد سبندر - في مجتمع العالم الشرقي ، وأن هذه القوة المحببة كانت من أكبر ما يملك أمر محمد عبده ، وما يعمل لتحقيقه بهمة متقدة وعزم ماض ، لولا ما منى به من أفكار جمهرة غير قليلة من علماء الأزهر أن يظهر من بينهم رجل مثله ، يخالف مذهبه مذهبهم ، ومشربه مشربهم ، فما كاد يمضي على ذلك ثلاثة شهور حتى ترك منصبه بسعيهم ضده ، « فاعتزل العمل في مصيفة ، حيث قضي نحبه » وربما كان موته - كما يقول سبنسر - مسبباً من انكسار قلبه ، وخيبة آماله ، لأن القلوب قد تنكسر أحياناً » .

هذه صورة من صور حياته في آخر عهده ، وإنه لمن اللافت للنظر والمثير للعجب أن نجد في حديث هؤلاء الأجانب الذين ما يكادون يبلغون مصر حتى

يكون من أول من يقصدون إليه ، ويتحدثون به ، ويدركون به من حياة هذا البلد ما لم يكن ليصيبونه عند غيره . ومن ذلك ما جاء في حديثه عنه ، إذ يقول :

يحضرني الآن مشهد ثان جلي من مشاهد وجودي مع المفتي ، ألا وهو اجتماعنا في الحجرة الداخلة المعدة للضيوف في الشيخ عبيد ، حيث جلسنا تلك الليلة بعد تناول العشاء ، وتحاذبنا أطراف الحديث ، فلا يغيب عن ذاكرتي شيء منه ، فأرى سجاجيد تلك الغرفة النفيسة وجدرانها العارية من الأستار ومواد الزينة ، وما فيها من الفوانيس الشرقية الغريبة التي تدع بقعاً سوداء من الظلام في زواياها ، ومحيا ذلك الشيخ المتفرس ، مجتلي الطلاقة والوقار ، وهو يحدثنا عن مصر » .

صورة واضحة جلية من تلك القاعة التي اندثرت مع الدار التي قامت بها ، ولكنها تعرض علينا مشهداً من المشاهد التي كانت تجمع بين التقاليد الشرقية ، والمبادئ الإسلامية ، إلى جانب ذلك الوجه الوقور الطلق يتحدث عن مصر وما يرجوه لها من مستقبل .

وما أن ذكر الشيخ وأشار إلى ما كان يتحدث به فقد انفتح له بذلك الباب الذي ينفذ منه إلى الحديث عما فهم منه ، وما كان يصبوا إليه من أنواع الحكومة التي يتمناها لمصر ، إذ يقول : « كان قلبه يصبو إلى نوع من الحكومة الشورية ، في عهد ولاية الحكومة الانجليزية ، وكان يؤمل أن اللورد كرومر يمن بها يوماً على بلاده . وقد رسم لنا خطة هذه الحكومة رسماً مفصلاً ، ارانا به إنه كثير التطلب لها والتنقيب عنها » .

وكم كنا نود لو أنه أفضى إلينا بهذا الرسم المفصل الذي كان كثير التطلب له والتنقيب عنه فلعل في ذلك ما يعدل من الرأي الشائع عنه من انحيازه إلى الانجليز ، ولسنا نعتقد إلا إنه كان منحازاً إلى مذهبهم في الحكم وطريقتهم في الإدارة ، وخاصة حين يقابل ذلك بما كان يعرفه عن القصر المصري ، وما كان

يبلغه عنه وصار إليه ، وما نحسب أن ذلك كان منقطع الصلة بها ذكره بعد من اندراء كثير من المصريين إلى المبالغة في التشبه بالأوربيين ، وإسرافهم في تناول المشروبات المسكرة حتى لتفقدهم صوابهم ، فيقول :

« على أنه لم يكن مغتبطاً مطلقاً من سوء أثر اقتداء المسلمين بالأوربيين ، فمما قاله في ذلك إنهم يرونك تشرب فيقلدونك ، غير أنهم لا يفهمون اعتدالك في الشرب ، فإذا شربوا شربوا ليسكروا . وقص علينا قصة محزنة عن كثرة شرب الخمر في الوجه البحري » .

تلك هي صور من حياته في داره ، وطريقة استقباله لضيوفه ، وأسلوبه في زيارة أصدقائه ، وطرف من أنواع أحاديثه ، فإذا انتقلنا من ذلك إلى تمثل صورة هذه الحياة في بعض الأماكن التي اعدت له في الأزهر وجدنا ذلك في هذه الغرفة التي نرى فيها إلى جانب هذه الغرفة صورة من الحياة الأزهرية التي تطل عليها هذه الفرقة ، وذلك إذ يقول :

« وآخر عهد لي برؤية ذلك الشيخ البار الكريم إني رأيته جالساً في غرفته الصغيرة بالأزهر . وهذه الغرفة في برج عال يشرف منه المطل على ذلك السوق العلمي العجيب الواسع الأرجاء ، حيث يتلاقى الطلبة المسلمون من أقصى صحارى الجنوب ، والطلبة الوافدون من بغداد ، يجلسون على بلاط متلاصقين ، وحيث يختلط لفظ اللغات المختلفة ، وترتيل القرآن ، وإرشاد المعلمين ، بما يكون من المكاد الشديد الذي يصدر من الطلبة حال جوس ذلك الكافر المستطلع المسالم خلالهم .

كان المفتي يشرف على كل ذلك ، ويتنفس الصعداء من عمله الموحش الجليل ، قائلاً : « هأنذا كما تروني وحيداً ، ليس من الأستاذة من يساعدني ، ولا من دعاة الخير من ينصرني. أريد أن أعلم في هذا الجامع شيئاً نافعاً بدلاً من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى ، التي هي أضر من كتبكم القديمة

المؤلفة في القرون الوسطى - قال ذلك ، وهو يشير إلى عمود من الكتب الضخمة مستنداً إلى جدار الغرفة - ولكن هل أجد من يساعدني على ذلك ، وإن لم أجد فهل أفلح فيه وحدي » .

تلك هي طائفة من صور حياة محمد عبده في أوائل القرن العشرين ، ولعلنا لاحظنا أن أكثر ما يلفت أنظارنا منها ويثير تطلعنا هو ما أمدنا به الغربيون الذين قدموا مصر ، فكتبوا عنها ما هاج أحاسيسهم ، وكان يمثل في كتاباتهم عن الشرق ثراء لابد لهم من تمثله ، وطرائف في أسلوب الحياة وطريقة التفكير لابد لهم من التنويه بها . إنها صورة الشرق المحتفظ بتقاليده ، المتأثر بالغرب في منهج تفكيره ، وأصول أحكامه وتقديره .